**محاضرات الادب**

**مدرسة الديوان**

القافية:-

وهي على رأي الزهاوي عائق آخر في سبيل الشعر إذ ان الزهاوي يعدّ من أقدم الشعراء العراقيين الذين حاولوا التحلل منها والخروج على شكل القصيدة المعروف وذلك في دعوته الى الشعر المرسل الذي يحافظ فيه على الوزن والتحرر من القافية، غير إنه يرى في الخروج على الاسلوب العربي في الشعر افساداً له إذ يقول :- ((أقول ولا اتحاشى وإن قامت عليّ قيامة المتشبهين واخذوا يوسعونني ذماً وتجهيلاً، إن الطرز المحدث في الشعر إذا لم يحافظ فيه على الاسلوب العربي هو افساد له كما كان البديع في عصره إفساداً وقد كان البديعيون يقولون: إنّا نحسن الشعر كما يقول هؤلاء اليوم إنا نطلقه من قيوده على إن بين هؤلاء نفراً لم يفطروا افراط المغالين بالتشبه بالافرنج))( ) فالقافية تحول دون تطور الشعر وتضيّق على الشاعر سبل التعبير فهي تتحكم في شعره وتمنعه من الاعراب عن شعوره اعراباً سليماً لذلك رغب الزهاوي في نبذها لان الشعرَ سيغدو حينئذ حراً طليقاً من القيود الثقيلة كما إن نبذ القافية لا يضر الشعر شيئاً لانها من بقايا السجع الملحقة بالشعر بمعنى انها طارئةً عليه والدليل على ذلك سماع البيت المفرد وتميزه من النثر وان لم يكن معه قرين يكشف عن تجانس القافية فيقول:- ((على إني أرى الذوق العربي يستقبح اليوم تعطيل أرجل الشعر من خلاخيل القافية مرة واحدة….وخير طريق للخلاص من عبثها هو ان يحافظ الشاعر في قصيدته على البحر سواء كان من بحور الشعر القديمة أم الجديدة ….وما تجانس القوافي على رأي البعض إلاّ زيادة قد ولدها الرقص على الغناء في أول عهد الشعر….فهي ليست من الشعر المنظوم في شيء ولذلك كان السامع لبيت مفرد لا يرتاب في كونه شعراً وإن لم يسمع قرينه ولعلها بقية من جناس كان يلتزمه قوم في القديم ….وقد تزول في المستقبل بتمامها))( ) غير أن الزهاوي يبقي على رأيه في القافية في مقالته التي نشرها في كتاب (سحر الشعر) لروفائيل بطي ويؤكده قائلاً تحت باب(القافية):- ((وإني لا اصرّ على التزام القافية بل أنا أول من نبذها ظهرياً وقال بقطع هذه السلاسل والاغلال وتحرير الشعر من وقرهما في مقالة نشرت لي قبل الدستور بسنوات ولا أجمد على الاوزان الستة عشر الدارجة عندنا ولكني أقول بالمحافظة على الجزالة العربية والاسلوب والشعور العربيين ولنبق عرباً وان لا نزخرف الشعر بما لا طائل تحته فنزعم أنّا قد جددناه وبعد ذلك سواء علينا أبقينا على ولائنا للقافية ام وأدناها))( ).

ويبقى الزهاوي على الرأي نفسه في مقالته عنوانه (نزعتي في الشعر) التي نشرها في مقدمة الجزء الاول من ديوانه إذ يرى بصدد القافية ان تتنوع في الشعر حتى يتمكن الشاعر من التعبير فقال:- ((ولا أرى مانعاً من تغيير القافية بعد كل بضعة ابيات من القصيدة عند الانتقال من فصل الى آخر كما فعلت في عدة قصائد لا دفعاً لممل السامع من سماع القافية الواحدة في كلّ بيت كما يدعي بعضهم….بل إراحة الشاعر من كد الذهن لوجدانها فإن الاتيان بها متمكن ليس في قدرة كل شاعر))( ) ونرى أن الزهاوي يناقض نفسه فمرة يرى القافية قيداً وأخرى يرى ان لا مانع من استخدامها وتغييرها بعد كل بضعة أبيات في القصيدة وتبقى القافية عندهم مشكلة يضطر الشاعر الى استحضار المعنى للحشو فقط من أجل ضبط القافية في القصيدة الواحدة غير إنه عبر مقالاته التي يتحدث فيها عن الشعر يرى ان القافية هي العضو الاثري الذي بقي من كلمات كان يكررها في آخر كل بيت النادب في المناحات والمتحمس في الحرب والصدام يوم تولد الشعر في عصور الجاهلية الأولى( ). ويدعو الى عدم الاهتمام بالقافية ذلك الاهتمام الذي منحه إياها أهل العروض والشعراء القدامى( ) فيقول:- ((ولكن القافية لا تعلق لها بالموسيقى التي تقوم بالوزن وحده فهي قيد ثقيل كما قلنا وسبب لتأخر الشعر العربي عن اضرابه في اللغات الاجنبية الراقية ولذلك يلجأ كثير من الشعراء إلى احضار القافية قبل المعنى ليطمئن بالهم على وجودها ثم يستخرجون المعنى منها ومثل هذا لا يكون إلا تافهاً او مبالغاً فيه لأنه وليد القافية لا الشعور))( ) وعندما يقارن الزهاوي بين القافية عند العرب وعند الغربيين والتي يراها الاستاذ الدكتور داود سلوّم انها مقارنة لا تقوم على الاستقراء العلمي أو على المعرفة الدقيقة لموقف الغرب حيال القافية ويرى انه اعتمد على بعض الملاحظات المبثوثة في الصحف والمجلات عن الشعر الحر في الادب الانكليزي( ) يقول الزهاوي:- ((والقافية عندنا أصعب مما هي عند الغربيين بما لا يقاس إذ الروي عندهم ساكن دائماً وعندنا متحرك يجب أن نأتي به في كل ابيات القصيدة على صورةٍ واحدة من ضمة أو كسرة أو فتحة وبعبارة أخرى أوضح يجب أن نجد لآخر الابيات كلمات تتوافق في وزنها وتكون متممة للمعنى المراد وان يكون رويها على شكل واحد من الاعراب))( ) ثم يحدد موقف الغربيين من القافية متهماً إياهم بأنهم قد بتروها وابقو على الوزن وبقي بعضهم متحملاً عبأها ومع ذلك يصر الزهاوي على إنها صائرة الى الزوال فيقول:- ((على ان كثيراً من ادباء الغرب بتروا هذا الذنب الذي لم تبق فيه اليوم فائدة للشعر واكتفوا بالوزن الذي هو قوام الشعر وبقي كثيرٌ منهم متحملاً عبأها يخفف وطأته بتغييرها في القصيدة وهي مع كل حرصهم عليها صائرةُ الى الزوال))( ) ويرى الزهاوي ان القافية تعيق تسلسل المعنى وسيولة الفكرة ولكي يكون الشعر معبراً بصدق عن احساسات النفس يجب أن يستغنى عن القافية ويضحي بها( ) فيقول:- ((ونحن في موقفنا اليوم وقد علمتُ ان القافية عندنا غيرها عند الغربيين امام أمرين:- اما نضحي بالمعنى للقافية أو بالقافية للمعنى وقد رجحت تضحية القافية ليكون الشاعر حراً يسهل عليه ان ينظم ما يشاء من المعاني فيمشي حثيثاً دون ان تكون القافية حجر عثرة في طريقه))( ) ونرى ان الزهاوي لم يكن مع القافية والمهم عنده هو المعنى لأنه يعدها قيداً والتضحية بها تعطي للشاعر حرية في عملية نظم المعاني كما يرى ان ترك القافية كفيل بأن يطلق جناحي الشاعر من اسرهما وان يرتفع بمقدرته الى مستوى مدارك الشاعر الغربي ويفتح له ابواب الابداع( ). فيقول:- ((والموفق من الشعراء هو الذي يستطيع ان يجد القافية للمعنى ولكن هذه القدرة محدودة لثقل القيد وقلة الكلمات غير المهجورة في اللغة العربية ولعل الكلمات المهجورة اربعة اخماس الكلمات الشائعة وكم من معنى جليل اضطر الشاعر الى تركه لعدم وجدانه (قافية) مناسبة وهذا هو سر تأخر الشعر العربي عندنا وإذا اكتفينا بوقوف الشعر عند الحد الحاضر فهذا متيسر مع بقاء القافية))( ) فالزهاوي هنا يرى أن الشاعر الجيّد هو الذي يستطيع ان يجد القافية المناسبة للمعنى وهذه لا تتوافر للشعراء كلهم وذلك لكون القافية ثقيلة وقلة الكلمات غير المهجورة في العربية لذا يضطر الشاعر الى ترك المعاني الجيدة لعدم حصوله على الفاظ (القافية) المناسبة بمعنى ان الشاعر يضحي بالمعنى من أجل القافية وهذا سبب تأخر الشعر العربي من وجهة نظره. ونخالفه هذا الرأي في أن اللغة العربية زاخرة بالالفاظ الدالة لكن الامر يتوقف على الشاعر نفسه في امتلاكه الخزين اللغوي. وكان الزهاوي عنيفاً في ردوده تجاه خصومه الذين عقبوا على مقالته في (الشعر المرسل) التي نشرها في جريدة السياسة يوم 29/5/1925 اذ حمل على القافية حملة شعراء فيرى ((ان القوافي قيود ثقيلة في أرجل الشعر يرسف فيها ولا يكاد يمشي حراً كما يجب ان يمشي وكم شاعر خسر المعنى لانصرافه الى القافية….واخذ يستخرج المعاني كأنها الحجر الاساس لبناء ابياته فهو لم يتحرَ القافية للمعنى بل تحرى المعنى للقافية فجاءت معانيه تافهة متناقضة او مبالغاً فيها وما التزام شعرائنا القافية (كذا) الا جمود منهم على القديم الذي الفوه جيلا بعد جيل متوارثين إياه منذ الوف من السنين وتهيب منهم من الجديد وان كان غرض الشباب جميلاً))( ) ويرى ان القافية هي سبب فقدان الشعر القصصي عند العرب إذ يقول:- ((نعم إن الشعر العربي مقصر في بعض ابوابه كالقسم الروائي))( ) والقافية هي سبب قلة الابتكار وتفاهة المعاني والموضوعات عند العرب ويقارن الزهاوي بين انعدام الحرية الفكرية والقافية وايتهما اكثر ضرراً على الشعر ويجد ان كليهما يتساندان على قتل إبداع الاديب وانعدام الحرية يضيع جزءاً والقافية تضيع القسم الآخر والسبب في تقدم الادب لا يرجع الى المناخ بل الى التقدم في الحضارة والرقي في الفكر واطلاق الحرية للشعوب والافراد في ارائهم، أما العربي فيحتاج بعد الرقي والحرية الى نزع القافية حتى يتقدم شعره فإن رعاية الاعراب في لغته قد جعل صعوبتها اضعاف في اللغات المحررة من الاعراب. ويرى إن القافية هي السبب في الفشل الذي يعانيه الشاعر العربي الذي لديه صلة بالآداب الغربية وعدم بروزه في الشعر إذ يقول:- ((ان كثيراً ممن تهذبوا في اوربا من شبابنا وتعلموا العلوم العصرية ووقفوا على الاداب الغربية يتعاطون الشعر العربي ولا يبرزون فيه لارتباطهم بالقافية ))( ) ويعود الزهاوي ثانية في رده على هيكل في جريدة السياسة الاسبوعية الصادرة في 3 سبتمبر عام 1927 ويدعو الى حل هذه المشكلة بالطريقة نفسها التي طرحها سابقاً وهي الدعوة الى تنويع القوافي داخل القصيدة الواحدة فيقول:- ((إن اختلاف القوافي في القصيدة الواحدة كجعل كل قسم من أقسامها على قافية فيه سهولة للشاعر ولكن القافية مهما اختلفت فهي تقيد الشاعر ولا تدعه حراً في اظهار ما يريده من معنى او شعور ….وضرورة كونها على صورة خاصة من صور الاعراب في آخر كل بيت وهذه الضرورة هي التي تضطر الى استخراج المعاني من القافية فتكون المعاني تبعاً للقوافي عوض أن تكون القوافي تبعاً لها….فإن القافية لا تخلو من كونها حركة خاصة فيه كالرفع او النصب او الجر فإذا تعينت إحدى هذه الثلاث وجب ان يسوق الشاعر الكلام في كل سطر من الاسطر الاخيرة في القصيدة الواحدة على صورة وتأتي فيها تلك الحركة المعينة الاخيرة مع المحافظة على الوزن وليس لهذا القيد من مثل في اللغات الغربية الحية))( ).

ويرى الدكتور داود سلوم ان اقوال الزهاوي في القافية ومقارنتها باللغات الاوربية إنما هي آراء السوريين واللبنانيين وخاصة قول البستاني بأن القافية مقيدة للشعر القصصي وان عدم وجود ما يشبه القافية العربية من حيث اعرابها وتكررها على طول القصيدة هو نتاج ما قرأه عند جماعة الديوان عام 1913.( ) ونرى صواب ما ذهب اليه الدكتور سلّوم ويمكن ان نضيف اليه ايضاً اطلاع الزهاوي على التراث الشعري العربي ومحاولات التجديد فيه ((إذ كانت نية أبي نؤاس ان يكتب شعراً لا قافية له))( ) ويبدو لنا ان الزهاوي في آرائه كان متأرجحاً بين الحفاظ على القديم الموروث والثورة على تلك القيود التي تحد من حرية إبداع الشاعر فهو يتوجس خيفة من ثورة المحافظين( )مثلما يخاف على الشاعر من تطرف المجددين.